

الفكرة الدينية وبناء الحضارة عند مالك بن نبي

أ/ بوترعه بلال - جامعة الوادي

ملخص :

لقد شغلت فكرة الحضارة اهتمام العديد من المفكرين والمصلحين والمؤرخين ويعتبر أستاذ الحضارة مالك بن نبي واحداً من هؤلاء المفكرين الذين حملوا هم هذه القضية فكانت سلسلة كتاباته تحت عنوان مشكلات الحضارة.

وتعد المعادلة الشهيرة لتشكل الحضارة من الإسهامات المتميزة التي قدمها بن نبي في هذا السياق (الإنسان + التراب + الوقت = الحضارة) ، غير أن بن نبي يؤكد أهمية الفكرة الدينية في نجاح هذه المعادلة وفعاليتها. فهو يؤكد أن الحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء، يكون للناس شرعةً ومنه اجأً، أو هي على الأقل - تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي (ولو كان غيباً من نوع زمني، أي في صورة مشروع اجتماعي بعيد الأمد، مثل بناء مجتمع جديد يضع حجره الأول، وتواصل بناءه الأجيال السابقة) بالمعنى العام، فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة، إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيداً عن حقبته فحينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته، وتتفاعل معها.

فالحضارة عند بن نبي ما هي إلا ترجمة تاريخية للعلاقة العضوية بين الفكرة الدينية وسندها المحسوس هو الإنسان، ويقول بن نبي في هذا السياق: (كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو في المراحل البدائية لتطوره الاجتماعي فإنه يجد سطوراً من الفكرة الدينية) وهذا ما يبرز لنا بوضوح أهمية الفكرة الدينية في بناء الحضارة ونهوضها. وفي هذه الورقة سنحاول تسليط الضوء على أهمية الفكرة الدينية في البناء الحضاري في نظر مالك بن نبي، وكيف يمكن لهذه الفكرة الدينية تفعيل الفرد وتوجيه جهوده نحو النهضة والحضارة.

تمهيد:

يعدّ «مالك بن نبي» واحداً من أعلام الفكر الإسلامي الذين حجب فكرهم عن الناس لعدم اهتمام الدارسين بهم . إنه المفكر العملاق الذي نذر حياته في خدمة القضايا الإنسانية العادلة ابتداء من القضية الجزائرية إلى القضايا القومية والإسلامية وانتهاء بمعضلات العالم الثالث، فلقد أمضى أكثر من ثلاثين عاماً متأملاً يحلّل ويضع شروط النهضة للمجتمع الإسلامي. ورغم التعطيم والتهميش الذي مورس ضده حياً وميتاً، إلا أن فكره بقي حياً يُقرأ وأفكاره ما زالت تنبض بالحيوية والفعالية، تتداولها أجيال ما بعد الاستقلال في الجزائر وفي العالم الإسلامي برمته.

ولعل من القضايا المهمة التي سلط عليها مالك بن نبي الضوء في جل كتاباته مشكلة الحضارة والنهضة، حيث سعى جاهدا إلى رسم طريق وسبيل النهضة للعالم الإسلامي من أجل تجاوز حالة الضعف والهوان الذي بات السمة البارزة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية.

والحضارة عند بن نبي هي ذلك المركب بين العناصر الثلاث الإنسان والتراب والوقت، في التاريخ غير أن هذه العناصر لا يمكن لها أن تصنع حضارة في غياب العامل المركب لهذه العناصر الثلاثة، هذا العامل الذي يعتبره بن نبي بمثابة الطرف الاستثنائي الذي بظهوره يبدأ المجتمع السير في طريق الحضارة وهو ما يسميه بن نبي الفكرة الدينية، فما هي الفكرة الدينية عند مالك بن نبي؟ وأي دور لها في البناء الحضاري؟ .

أولا : الحضارة عند مالك بن نبي:

عودنا بن نبي على إتباع المنهج التحليلي في كل دراساته أبحاثه وبذلك نجده يقدم لنا الحضارة ومكوناتها وفق معادلة يسميها "معادلة الحضارة".

نواتج حضارة = إنسان + تراب + وقت

لكن إذا نظرنا إلى هذه العناصر منفصلة عن بعضها لا يمكننا إطلاقا الوصول إلى الناتج الحضاري وهو الهدف الذي نسعى إليه ، وإلا لرأينا ذلك في العهد الجاهلي فالقبائل العربية كانت تملك الإنسان والتراب والزمن إلا أنها لم تنتج شيئا ما يشبه الحضارة؟

وعليه المعادلة بهذا الشكل تبقى منقوصة بل حتى أنه لا معنى لها لذلك يضيف بن نبي مركبا محفزا جديدا دوره تفعيل هذه المكونات ما إن يظهر بين ثنايا المعادلة ، هذا العامل المركب هو "الفكرة الدينية" التي تعتبر المؤشر ونقطة الانطلاق بمجتمع راكد نحو الحضارة التاريخية فكما يقول بن نبي "الوسيلة إلى الحضارة متوافرة مادامت هنالك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة الإنسان، التراب، الوقت، لتركب منها كتلة تسمى في التاريخ حضارة"¹.

إذن لا يمكننا إطلاقا بناء حضارة من خلال شراء منتجات حضارية جاهزة ،كما يفعل العالم الإسلامي اليوم، فإنتاج عالم الأشياء (المنتجات الحضارية) توفره الحضارة ولا تنطلق منه كما أن الحضارة يمكن أن تتبع أشياءها لكنها أبدا لا يمكن أن تتبع روحها. وبالتالي لا يمكن حل مشكلة الحضارة إلا بحل مشكلة مركباتها الثلاث:

مشكلة الإنسان

مشكلة التراب

مشكلة الوقت

لنأخذ كل مركب على حدى كما يفعل بن نبي ولنوضح دوره الرئيس في المعادلة البنائية للحضارة بشيء من الإختصار .

أولاً: مشكلة الإنسان: الإنسان هو المكون الأساسي للحضارة وقطب رحاه ، ولن نتقدم حال أمة أو جماعة ما لم يحدث تغيير على مستوى النفس الإنسانية المشكّلة لها، هذا قانون الاهی " إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ " **الرعد:11** . فإحداث التغيير الاجتماعي بالإيجاب أو بالسلب مرهون بالدرجة الأولى بتأثير الإنسان على محيطه و يحدد لنا مالك بدقة متناهية كيف يؤثر الإنسان على المجتمع إذ يرى أن فكر الإنسان وعمله وماله هم الأبواب التي يستطيع الإنسان من خلالها المشاركة والمساهمة في التغيير الاجتماعي الايجابي الذي يرقى به من كونه فرد (لا تربطه صلات اجتماعية بمن حوله سوى أنهم ينتمون لنفس النوع) إلى شخص (يعيش مع جماعة وفق شروط وغايات موحدة) وحسب بن نبي دائماً لكي نصل إلى درجة الاستفادة المثلى من فكر، عمل، ومال الإنسان علينا القيام بعملية منهجية ضرورية لتجنب الإسراف في الوقت والجهد هذه العملية التي سماها "التوجيه".

أولاً: توجيه الثقافة: بداية ما معنى الثقافة؟ وما علاقتها بالعلم و المعرفة؟

يرى بن نبي أن الثقافة ليست مجرد علم يتعلمه الفرد في المدرسة أو يطالعه في الكتب ذات مضمون معرفي صرف، إنما هي جو عام من الأدواق والعادات والقيم التي تؤثر في تكوين الشخصية وتحديد دوافع الفرد وانفعالاته وعلاقاته بالأفراد الآخرين وبالأشياء.

يقول مالك أيضاً " الثقافة نظرية في السلوك أكثر منها نظرية في المعرفة " ² فالثقافة لا تعني بأي حال من الأحوال العلم، إلا أنهما يرتبطان ويتشابكان في نقاط عدة إذ أن الثقافة تشترط تحديد الصلة بين الأفراد بينما العلم لا يهتم إلا بالصلات الخاصة بالأفكار والأشياء كما أن العلم تنتهي عملياته عند إنشاء الأشياء وفهمها بينما الثقافة تستمر في تجميل وتحسين الأشياء وعن الثقافة و الحضارة يقول بن نبي " الثقافة هي جوهر الحضارة إذ أن كل تفكير في مشكلة الإنسان هو تفكير في مشكلة الحضارة، وهو تفكير في مشكلة الثقافة، لان الحضارة هي مجموع من القيم الثقافية المحققة، فمصير الإنسان رهن دائماً بثقافته " ³ والثقافة من حيث ارتباطها بالحضارة هي "مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقيها الفرد منذ ولادته

كرأسمال أولي في الوسط الذي ولد فيه والثقافة على هذا هي المحيط الذي يشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته ⁴.

كيف لنا أن نوجه الثقافة؟ أو نحولها إلى مشروع عملي تربوي؟

عند تحليله لمشكلة الحضارة عموماً أو الثقافة خصوصاً يعتبر بن نبي أن الثقافة عامل حضاري تاريخي ونظام تربوي تطبيقي يتألف من عناصر أربعة عند تجميعها (هاته العناصر) وتوجيهها بالشكل الصحيح نكون قد حققنا الفعالية الثقافية.. أي أننا نسير بالثقافة نحو دورها الأصيل في التاريخ الحضاري.. أو بتعبير آخر حللنا مشكلة الثقافة، فما هي العناصر الأربعة المكونة للثقافة؟ وكيف لنا أن نسير بها في الاتجاه الصائب؟

1-المبدأ الخلفي(التوجيه الأخلاقي): " الروح الخلقى منحة السماء إلى الأرض عندما تولد الحضارات ⁵ هو أهم عناصر الثقافة ومصدره الفكرة الدينية أو العقيدة إذ أنه أي المبدأ الأخلاقي يقوم ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصور بدونه عالم الأشياء ولا عالم المفاهيم دوره الأساسي الربط بين أفراد المجتمع وتركيب شبكة العلاقات الاجتماعية لذا نجد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وقد بدأ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار كأول عمل يقوم به مجتمع عند ميلاده مشكلاً شبكة علاقات قوية كانت سبباً في نهوض المجتمع والسير به نحو بناء حضارة والأصل دائماً بزوغ الفكرة الدينية وتغليب الروح. وعليه خلق سام ومبدأ أصيل وضعنا أقدامنا في طريق الحضارة.

2-الذوق الجمالي(التوجيه الجمالي): " المجتمع الذي ينطوي على صور قبيحة لا بد أن يظهر أثر لهذه الصور في أفكاره وأعماله ومساعيه ⁶ للذوق والإحساس الجمالي دور كبير جداً في بناء الثقافة وذلك لما له من تأثير عميق على النفس الإنسانية وهذا الوقع أو التأثير من شأنه أن يتحكم لاحقاً في الفكر والسلوك معا يضرب لنا مآلك مثالا رائعا عن استخدام المظهر والشكل الخارجي في التأسيس والتأصيل لأفكار معينة فيقول " ما كانت جهود مصطفى كمال أتاتورك في تغيير اللباس الخارجي للشعب التركي إلا لتغيير الأنفس أي تغيير قيم وأفكار المجتمع ⁷ أيضا يضيف التوجيه الجمالي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الذوق العام من حيث الألوان والأشكال. إلا أن بن نبي يشدد في أسبقية المبدأ الأخلاقي على الجمالي وهذا هو الأصل في الحضارة الإسلامية التي لطالما كان لعنصر الأخلاق الدور الرئيس في تقرير الاتجاه العام للمجتمع فيها بينما يكتفي الذوق الجمالي بصياغة صورته خلافا لما هو حاصل في المدنية الغربية إذ غلبوا هنالك عنصر الجمال والمظهر العام على الروح الخلقية وأصبحت الشهوات والملذات هي التي تسيطر على الأخلاقيات والمبادئ وليس العكس.

3- المنطق العملي (الفعالية): " المسلم لا تنقصه الفكرة بل العمل بها " ⁸ يعني بن نبي بالمنطق العملي الربط بين الفكرة (مجردة) ووسائل تنفيذها (محسّنة) أي الانتقال من عالم الأفكار المجرد الى التطبيق الواقعي من خلال عالم الأشخاص وبالتالي بناء عالم الأشياء ، فمالك يرى أن ما ينقص المسلم ليس منطق الفكرة بل منطق العمل والحركة فهو لا يفكر ليعمل بل ليتكلم فقط فمن الخطأ -حسب بن نبي دائما- أن نقول أن المجتمع يعيش وفقا لمبادئ القرآن وأن الصحيح هو أنه يتكلم فقط وفقا لمبادئ القرآن لهذا نجد بن نبي في تعريفه للثقافة يبرز العادات والسلوكيات وتصرفات الإنسان كجزء منها وأن الثقافة تتجاوز العلم إذ أن العمل بالعلم أيضا يندرج ضمنها.

وبالتالي الفكرة موجودة راکدة غير مفعلة لا يمكنها أبدا تحقيق هدفها حتى وان كانت صحيحة سليمة بينما الفعالية تؤدي بالمبدأ والفكرة إلى النمو والانتشار وان كانت خاطئة.

4- الفن الصناعي: "لا نعني بالصناعة ذلك المعنى الضيق المقصود من هذا اللفظ بصفة عامة في البلاد الإسلامية... كل الفنون والمهن والقدرات وتطبيقات العلوم تدخل في مفهوم الصناعة " ⁹

يقترح بن نبي إنشاء " مجلس التوجيه الفني " حتى نتجنب العشوائية الصناعية- إن صح التعبير- فنجعل لكل المهن والحرف زهيدة كانت أو مرموقة نجعل لها قواعد ونظم تسير وفقها ولسوف تخيب آمالنا كما يقول بن نبي إذا ما عولنا في قضيتنا على العلم الذي نتعلمه في المدارس الرسمية أو غير الرسمية أو على ما تعدنا به السياسات الانتخابية وما تعدنا إلا غرورا علينا تكوين قيادة فنية توجه صناعة الإنسان وحرفته نحو التقدم والتحضر.

بتركيب هاته العناصر الأربع وبتحقيق التوافق والانسجام فيما بينها يكمل بعضها الآخر ويوجه أحدها غيره نعرف أولوية هذا عن ذاك وحدود عمل ذلك ومنطقة تأثير كل منها ومجال حركة كل عنصر والأهم التوجيه الأمثل والأنسب للعناصر الأربعة بهذا نكون قد جمعنا شروط الفعالية لنظام تربوي شامل ألا وهو الثقافة.

ثانيا: توجيه العمل: كما أشرنا سابقا فكر الإنسان وعمله وماله هو من يؤهله للمساهمة في إحداث التغيير من حوله والسير بمجتمعه نحو التقدم وركب الحضارة أو نحو السقوط و التهاوي رأينا كيف أن لفكر (ثقافة) الإنسان بالغ الأثر في تغيير نفسه ومن ثمّ مجتمعه من خلال عملية التوجيه البنّائية (بن نبي).

الآن.. سنرى -بالنسبة لمالك طبعاً- كيف لنا أن نوجه عمل الإنسان بالشكل السوي لنضمن تأثيرا ايجابيا يقودنا إلى قافلة الحضارة ويدخلنا حيز التاريخ الإنساني من جديد.

هما أمران اثنان في غاية الأهمية أشار إليهما مالك في كتاباته، إن تقيدنا بهما بشكل دقيق وعمل بهما أفراد المجتمع بصورة جماعية موحدة نكون قد وضعنا " العمل " في المضمار الصحيح وأخذت عملية التوجيه سمتها الرشيدة والصحيحة.

أولهما: أن تسير الجهود الجماعية في اتجاه واحد.. أي أن يشترك جميع أعضاء المجتمع في الأهداف الرئيسية النهضة البناء الحضاري التقدم ومن ثم يساهم الجميع في العمل من أجل الوصول إلى هدفهم الموحد بالأرض. كل من موقعه انطلاقاً من قدراته وضمن نطاق حركته..

ثانيهما: يرى بن نبي أنه علينا أن نفكر بالعمل كعملية ضرورية للوجود ولتحقيق التقدم ثم العمل من أجل الكسب المفكر المهندس أشار إلى مشكلة رئيسة يعانيها مسلم زماننا هذا أن يعمل وهمّة الأول الكسب فإن أردنا تأثيراً إيجابياً من الإنسان نحو المجتمع وبالضرورة توجيه صائب لعمله علينا أن نغير في ترتيب أهدافنا من وراء عملنا فلا يكون الربح أولوية على هدف التقدم و التطور ولا يكون الربح إلا وسيلة لمواصلة السير نحو التجديد والبناء.

لو عمل كل منا بشكل رائع ممتاز لكن دون مشاركة الآخرين ودون جهود مجتمعية موحدة لتشجعنا لن تكون النتيجة مميزة كما نريد والعمل من أجل مجرد الكسب بالضرورة يؤدي بنا إلى التهاون و التكاسل فكيف بمن همّة الوحيد مال من وراء عمل أن يعمل؟

ثالثاً: توجيه رأس المال:

لو تصفح أحدكم كتابات بن نبي لوجده يركز على أنه من الواجب التفريق بين الثروة من جهة وبين رأس المال من جهة ثانية فهما شيئان منفصلان متميزان فيقول " تظهر الثروة معرفة لنا بطابع مكاسب الشخص غير المتحركة غير الداخلة في الدورة الاقتصادية فهي شيء محلي، مستقر في حقل صاحبه أو داره أو خيمته و ليس لها من عمل مستقل بوصفها قوة مالية تدخل في بناء الصناعات و تمويلها أو في تجارة التصدير و الاستيراد أو غير ذلك من الميادين الاقتصادية كما هو الشأن في رأس المال فمعنى رأس المال في جوهره هو المال المتحرك الذي يتسع مجاله الاجتماعي بمقتضى حركته و نموه في محيط أكبر من محيط الفرد و أقصى من المقدار الذي تحدده حاجاته الخاصة " ¹⁰. تسعى الثروة إلى سدّ حاجات صاحباها المحدودة فحسب بينما لرأس المال الدور البارز في تحريك دورة الاقتصاد ونموه.

يرى مالك أن رأس المال لا يحدد من حيث الكم و العدد بل من حيث الكيف و الحالة فالدرهم الذي يتحرك و ينتقل و يدخل و يخرج عبر الحدود يسمى رأس مال بينما المليار من الدراهم المستقر الساكن هو ثروة ذات محيط ضيق، إذن فتوجيه رأس المال لا يتصل أولاً بالكم بل بالكيف فإن همّنا الأول يقول مالك أن تصبح كل قطعة مالية متحركة متقلّة تخلق معها العمل

و النشاط أما الكمّ فإن له الدور الثاني دور التوسع والشمول فالقضية ليست في تكديس الثروة ولكن في تحريك المال وتنشيطه بتوجيه أموال الأمة البسيطة وذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد فتكوين رأس المال ممكن حتى في وطن فقير إذا ما اتحدت فيه الجهود وتوجهت نحو الصالح العام.

ثانيا: مشكلة التراب: المركب الثاني ضمن ثلاثية الحضارة درجة وقيمة هذا المركب تأتي تبعا لقيمة أصحابه فارتفاع القيمة الحضارية للمجتمع تؤدي حتما بأن يكون للتراب قيمة عالية، وقد عالج مالك بن نبي مسألة التراب كأحد العناصر المكونة للحضارة ولم يتطرق لمكوناته وخصائصه وطبيعته لأن ذلك موضوع آخر تختص به بعض التخصصات العلمية الأخرى، فمالك بن نبي تناول عنصر التراب من ناحية قيمته الحضارية المستمدة أساسا من قيمة مالكيه، فقيمة المجتمع - بفعل تقدمه الحضاري - تكون مرتفعة يكون في المقابل للتراب قيمة عالية والعكس صحيح.

ويرى مالك أن التراب بصفة عامة في المناطق التي ينتشر فيها الإسلام يكون عديم القيمة، وهذا يرجع إلى تأخر الأفراد الذين يعيشون عليه ويضرب لنا مثلا واضحا من الجزائر، حيث أن مساحة الأرض الخضراء الخصبة في تناقص تدريجي في العديد من المدن، كمدينة تبسة مثلا، بسبب جهل الإنسان الجزائري لخطورة وعواقب زحف الرمال الصحراوية عليها.

ولو تكلمنا عن قيمة التراب في بلد كاليابان مثلا سنلاحظ العكس تماما، فهذه البلاد رغم هشاشة تربتها وضعفها وقلة خصوبتها، إلا أنه أستطاع أن يقطع أشواطا كبيرة في مسيرة التقدم والرفي الحضاري، بفضل ما قدمه الإنسان الياباني من جهود وأفكار في استغلال عنصر التراب أو تكييفه وفقا للفوائد والمتطلبات الاجتماعية، لقد أكد مالك بن نبي في تحليله لهذا العنصر - التراب - على أهمية الإنسان ودوره تجاه هذا العنصر فلو احسن استغلاله وتوظيفه لتمكن من تحقيق المعجزات والإنجازات ولتمكن من النهوض الحضاري، ويقول مالك بن نبي في هذا السياق: "لن نستطيع إنقاذ ذريتنا من الأجيال القادمة إلا بالعمل الشاق الذي يقوم به جيلنا الحاضر، وعندما تحقق تلك المعجزة التي تكون بانتصارنا على أنفسنا، وعلى أهوال الطبيعة، فإننا سوف نرى أية رسالة في التاريخ نحن منتدبون إليها، لأننا نكون قد شرعنا في بناء حياة جديدة، ابتدأت بالجهود الجماعية بدل الجهود الفردية وسوف تظهر أمامنا بعد ذلك أعمال جلية خطيرة، ولكنها سوف لا تخيفنا، لأن شعبنا أخضع التراب، ومهد فيه لحضارته ولم يعد شعبا يخاف نوائب الزمن"¹¹.

ثالثا: مشكلة الوقت: يقول بن نبي "الزمن، نهر قديم يعبر العالم منذ الأزل، فهو يمر خلال المدن يغذي نشاطها بطاقته الأبدية، أو يذلل نومها بأنشودة الساعات التي تذهب هباء، وهو يتدفق على

السواء في أرض كل شعب ومجال كل فرد، يفيض من الساعات اليومية التي لا تغيض، ولكنه في مجال ما يصير ثروة، وفي مجال آخر يتحول عدما، فهو يمرق خلال الحياة، ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحها له ما أنجز فيه من أعمال، ولكنه نهر صامت حتى إننا ننسأه أحيانا، وتنسى الحضارات في ساعات الغفلة أو نشوة الحظ قيمته التي لا تعوض، لا تستطيع أي قوة في العالم أن تحطم دقيقة ولا أن تستعيدها إذا مضت¹².

يقصد مالك بالوقت قيمة الأعمال المنجزة في ظل فترات زمنية محددة فعلى أولئك الذين يرغبون في بناء حضارة تغيير ذلك المفهوم السائد عندهم حول الوقت كمجرد زمن مترابط مشكلا سلسلة من الثواني، الدقائق، والساعات المتعاقبة ليس الا هو حل واحد لمشكلة الوقت تحويله من مجرد زمن خامد لا قيمة له إلى وقت ذي قيمة مجتمعية حضارية علينا أن نجعل من الوقت وقتا اجتماعيا مقدرا بساعات عمل لا ساعات مطلقة مجردة.

ثانيا : دور الفكرة الدينية في بناء الحضارة عند مالك بن نبي:

أولا: الدين في مفهوم بن نبي : يرى ابن نبي أننا حينما نتأمل القرآن (يبدو الدين ظاهرة كونية تحكم فكر الإنسان وحضارته، كما تحكم الجاذبية المادة، وتتحكم في تطورها. والدين على هذا يبدو وكأنه مطبوع في النظام الكوني، قانوناً خاصاً بالفكر، الذي يطوف في مدارات مختلفة، من الإسلام الموحد إلى أخط الوثنيات البدائية¹³). وهو (فضلاً عن أنه يغذي الجذور النفسية العامة، فإنه يتدخل مباشرة في العناصر الشخصية التي تكون الأنا الواعية في الفرد، وفي تنظيم الطاقة الحيوية التي تصنعها الغرائز في خدمة هذا الأنا¹⁴). .

ويعتبر بن نبي التاريخ على أنه ذلك السجل الأمين للتحويلات التي شهدتها البشرية، و الدين يعتبر ثابت من ثوابت الشخصية الإنسانية التي سجلها التاريخ على مر العصور، ليس هذا فحسب، بل إن الدين كان من وراء كل المنجزات البشرية، ولهذا فابن نبي ينتقد نظرية توينبي في التحدي والاستجابة، لأنها وإن كانت تفسر قيام بعض الحضارات فإنها لا تفسر لنا قيام بعضها الآخر، كما ينتقد ما ذهب إليه ماركس ومدرسة المادية التاريخية، إذ أن من الحضارات ما لا يمكن أن نفسر قيامها بالعامل المادي، مثل الحضارة الإسلامية، وحتى الحضارة الغربية نفسها، كما ينتقد ما ذهب إليه دعاة التفوق العرقي، وقيام الحضارات على أساس العرق، ويقدم الدين بديلاً تفسيريًا لقيام الحضارات ومنجزاتها عبر التاريخ¹⁵.

وهذا ما أكده بن نبي (كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي، في الأحقاب الزاهرة لحضارته، أو المراحل البدائية، وجد سطوراً من الفكرة الدينية. ولقد أظهر علم الآثار دائماً من بين الأطلال التي كشف عنها- بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، أيًا كانت تلك

الشعائر¹⁶)، ليس هذا فحسب، بل إن الحضارات ما أشرقت إلا من أمثال الكعبة أو معبد سليمان، ومن هناك كانت تشرق هذه الحضارات لكي تثير العالم.

وجدير بالإشارة أن نؤكد على أن بن نبي لا يرى الفكرة الدينية نسقاً من الأفكار الغيبية فقط التي تنزل من السماء ، على شكل دين سماوي فقط، فالفكرة الدينية عنده أكثر من ذلك فهي ذلك القانون يحكم فكر الإنسان، ويوجه بصره نحو أفق أوسع، وهي التي تقوم بتوجيه الفعالية و الطاقة الحيوية للإنسان، ويجعلها م نصبه ومنهمكة في بناء للحضارة والنهضة بالمجتمع ، وهي في نظره كل فكرة تقدم معبوداً غيبياً ووعداً أعلى، ابتداء من الإسلام الموحد إلى أحط الوثنيات. وهذا ما خصص له تحليلاً مفصلاً ومطولاً في كتابه شروط النهضة عندما قام بتحليل دورتين من دورات الحضارة؛ هما الحضارة الإسلامية والحضارة المسيحية لاستخراج السر الذي دفع بكلتا الحضارتين إلى مسرح التاريخ، وتحديد الموقع الذي يمثله الدين في حركة الحضارة. وهو بتحليله لهذين الدورين ينتهي إلى تأكيد أن السر الكوني الذي يركب العناصر الثلاثة الأساسية للحضارة؛ الإنسان والتراب والوقت، ويبعثها قوة فاعلة في التاريخ هو الدين ولا يمكن للحضارة أن تظهر في نظر بن نبي إلا (في صورة وحي يهبط من السماء يكون للناس شرعة ومنهاجاً، أو هي -على الأقل- تقوم أسسها في توجيه الناس نحو معبود غيبي بالمعنى العام¹⁷).

الفكرة الدينية وبناء الحضارة:

وكما ذكرنا سابقاً تتركب الحضارة حسب مالك بن نبي من إنسان وتراب ووقت، وفقاً للمعادلة التالية:

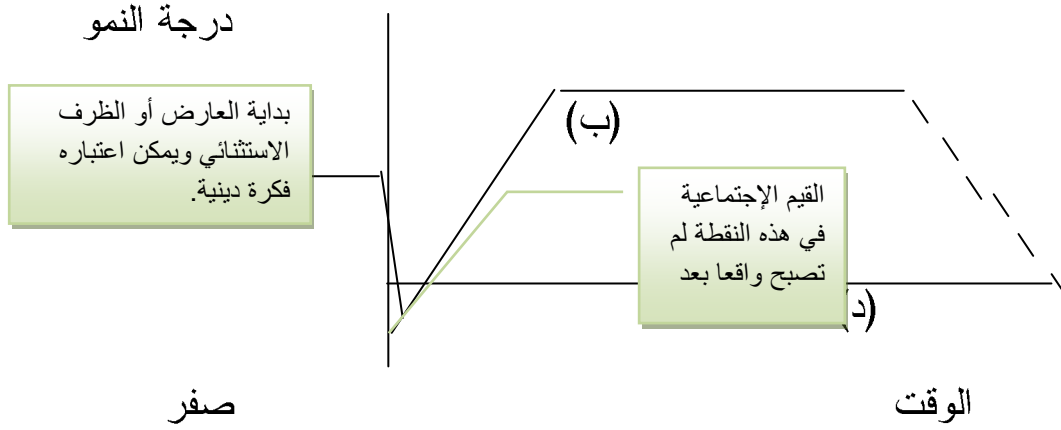
$$\text{إنسان} + \text{تراب} + \text{وقت} = \text{حضارة}$$

غير أن مالك بن نبي يعتبر أن هذا التركيب لا ينتج تلقائياً ولو كان كذلك لما وجدت إلى الآن جماعات بشرية تعيش حالة ما قبل الحضارة، إذن فتركيب الحضارة عناصر الحضارة السابقة لا يتم إلا في وجود عنصر مهم يكون إثـر حدوث(عارض غير عادي) أو بعبارة أخرى(ظرف استثنائي).

لقد اختلفت آراء المدارس المختلفة في ماهية هذا العارض أو الظرف، حيث أرجع هيجل هذا العارض إلى صورة تعارض يقع بين القضية ونقيضها، أما توينبي فيرجع هذا العارض إلى صورة(تحد) ناتج من الوسط الطبيعي أو البشري يفرض على المجتمع مواجهته والإجابة عليه.

ويرى بن نبي أن المجتمعات المعاصرة مجموعتين، مجموعة المجتمعات الراكدة(البدائية) وهي مجتمعات لم تغير وتطور من نمط معيشتها وما استجابت لتحد الطبيعة على حد آراء

أرنولد توينبي، أما المجموعة الثانية فهي المجتمعات التاريخية التي تتفق مع التعريف الوظيفي، وتشكل هذه المجتمعات 80 بالمائة من سكان البسيطة، حيث أن الطرف الاستثنائي الذي يسجل نقطة الانطلاق لهذه المجتمعات يتفق مع ظهور فكرة دينية في فجر حضارة معينة هذه الحضارة التي تتطور حسب مالك بن نبي في دورات ذات مراحل ثلاث كما يتضح في المخطط الموالي:



ولو قمنا بقراءة لهذا المنحنى البياني لأمكننا القول أن نقطة الصفر من الدورة الحضارية تمثل حالة المجتمع ما قبل الحضارة، وهي تمثل أيضا ظهور (الطرف الاستثنائي) اللازم لإحداث التركيب بين عناصر معادلة الحضارة (الإنسان، التراب، الوقت)، هذا الحدث يمكن إعتباره ميلاد هذا المجتمع وبداية عمله التاريخي، أما القيم الإجتماعية في هذه النقطة فهي مازالت لم تصبح واقعا بعد وإنما مجرد احتمالات، حالها حال المجتمع الذي مازال إحتمال في ضمير الغيب وبذرة من الإمكانيات في غضون التاريخ، أي أن المجتمع عندئذ يمكن أن يكون أو لا يكون، فعالم أشخاصه وعالم أشيائه لم يوجد بعد وهو بذرة موجودة في عالم أفكاره، ومثله مالك بن نبي بالنقطة التي تحتوي كل العناصر العضوية والنفسية المسهمة في تركيب الإنسان المقبل "قليس وجوده حينئذ سوى فكرة متجسدة، أحيانا في رجل مثل (إبراهيم) الذي قال فيه القرآن الكريم حقا: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) النحل 120¹⁸.

ويؤكد مالك بن نبي أن كل المجتمعات وعلى إختلاف عقائدها وشرائعها التي تدين بها فإن الفكرة التي غرست بذرتها الأولى في حقل التاريخ هي الفكرة الدينية والتي أعتبرها الطرف الاستثنائي - العارض - الذي يلد مجتمعا وهي ما يبسر لهذا المجتمع أن يؤدي عمله التاريخي، فمالك بن نبي يعتبر أن العلاقة الروحية بين الله والإنسان هي التي تلد العلاقة الإجتماعية التي تربط بدورها بين الأفراد فيما بينهم داخل المجتمع الواحد، وكما ذكرنا في المبحث السابق فإنها تلدها في صورة القيمة الأخلاقية، وعليه يمكن إعتبار العلاقة الإجتماعية والعلاقة الدينية أنهما حدث من الوجهة التاريخية، وهما عنوان على حركة تطور إجتماعي واحد من الوجهة الكونية

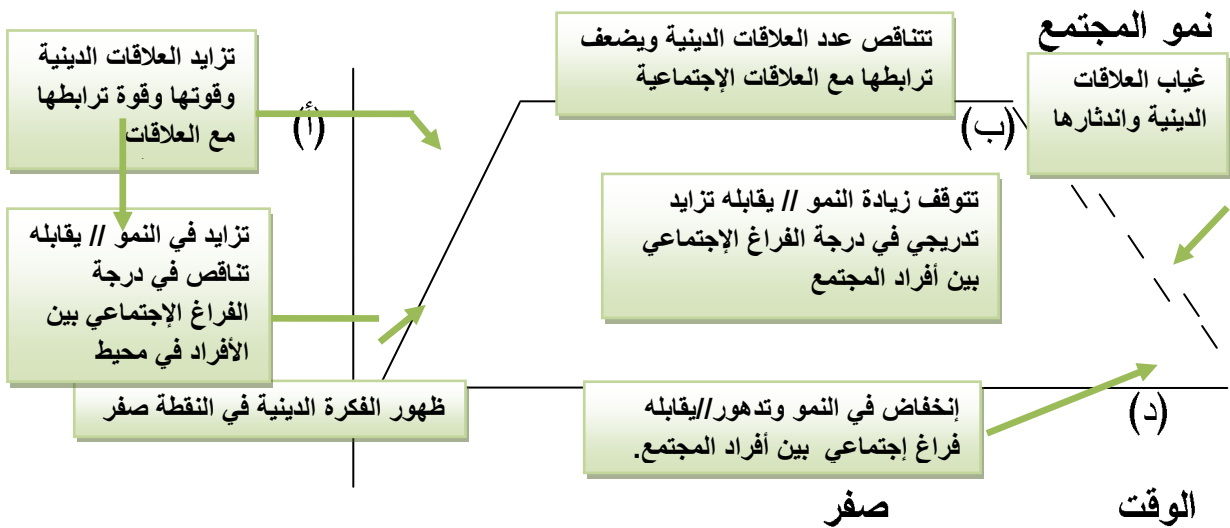
فهما يرتبطان إرتباط الأثر بالمسبب في حركة التطور الإجتماعي "العلاقة الإجتماعية التي تربط الفرد بالمجتمع هي في الواقع ظل العلاقة الروحية في المجال الزمني"¹⁹.

فالعلاقات الاجتماعية والعلاقات الدينية لهما نقطة بداية وانطلاقة في التاريخ فالإسلام مثلاً بدأ بنزول الوحي على الرسول والمجتمع الاسلامي بدأ في المدينة عندما بدأت الفكرة الدينية تسير الحياة وهما عنوان لحركة تطور واحد كون العلاقات الاجتماعية وتماسكها مرتبط بالسبب في ذلك وهو العلاقات الدينية وقوة تأثيرها.

ويرى مالك بن نبي أن قوة شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع تزداد تماسكا وقوة كلما كانت العلاقة الدينية متينة وكلما زاد عدد العلاقات الدينية بين أفراد المجتمع، إذن فعالية العلاقة بين العلاقات الدينية والعلاقات الاجتماعية تتحدد وفق المعادلة التالية:

$$\text{نسبة العلاقات الاجتماعية} = \frac{\text{(عدد العلاقات الدينية)}}{\text{عدد الأفراد}}$$

فالدين إذن حسب مالك بن نبي يخلق نظاما إجتماعيا يستحيل فيه الفرد إلى أفراد كثيرين حيث يضرب في عدد العلاقات الاجتماعية، وكلما ضعفت العلاقة الدينية تناقص عدد العلاقات الاجتماعية وهو ما تمثله النقطة (أ) من المنحنى والمرحلة التي تليها يتوقف نمو المجتمع عن الزيادة وتزداد بذلك درجة الفراغ الاجتماعي بين الأفراد في محيط المجتمع .



وكلما تقوى العلاقة الدينية بين النقطة (الصفر) والنقطة (أ) فإن درجة الفراغ الاجتماعي تقل قلة تصبح معها حالة المجتمع وأفراده كما يصورها الرسول صل الله عليه وسلم في حديثه (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)، فتلك إذن صورة للمجتمع المتماسك والمتساند والمتزن الذي لا يوجد فيه فراغ اجتماعي ولعل المجتمع المدني في عهد الرسول صل الله عليه وسلم خير دليل على ذلك، فعندما ما يصل الرجل إلى قسمة ماله وبيته وزوجاته مع أخيه الذي لم يعرفه إلا حديثاً فهذه قمة التكافل والأخوة وهي أسمى درجات التماسك الاجتماعي لشبكة العلاقات الاجتماعية.

غير أن الوصول إلى هذه الدرجة الراقية من التماسك أمراً ليس بالهين ولا اليسير وهو ديدن الشرائع المختلفة، التي سعت جاهدة إلى سد الفراغ الاجتماعي بكل ما أوتيت من قوة، هذه الصعوبة التي أراد الله عز وجل تبليغها الرسول صل الله عليه وسلم بقول عز وجل: (لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) الأنفال 63

الهوامش :

- 1 - مالك بن نبي: شروط النهضة. تر: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي. ط4 دار الفكر. دمشق. سوريا. 1987. ص64.
- 2 - مالك بن نبي: شروط النهضة: مرجع سابق. ص88.
- 3 - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة. تر: عبد الصبور شاهين وعمر كامل مسقاوي. ط4 دار الفكر. دمشق. سوريا. 1984.
- 4 - مالك بن نبي: شروط النهضة. نفس المرجع. ص89.
- 5 - مالك بن نبي: مشكلة الثقافة. مرجع سابق. ص79.
- 6 - مالك بن نبي: شروط النهضة: مرجع سابق. ص97.
- 7 - بشير قلاتي: : هكذا تكلم مالك بن نبي. ط1. منشورات مكتبة إقرأ. الجزائر. 2007. ص98.
- 8 - مالك بن نبي: شروط النهضة. مرجع سابق. ص103.
- 9 - مالك بن نبي: شروط النهضة، مرجع سابق. ص104.
- 10 - مالك بن نبي: شروط النهضة. مرجع سابق. ص118، 119.
- 11 - مالك بن نبي: شروط النهضة. مرجع سابق ص136 .
- 12 - مالك بن نبي: نفس المرجع، ص146.

13-

http://www.islamweb.net/newlibrary/display_umma.php?lang=&BabId=7&ChapterId=7&BookId=273&CatId=201&startno=0 يوم 2013/02/24 على الساعة 21:35

14 - نفس الموقع

15 - نفس الموقع

16 - نفس الموقع

17 . نفس الموقع

18 - مالك بن نبي: شروط النهضة. مرجع سابق . ص56

19 - نفس المرجع. ص97